التكامل المعرفي في علم الأصوات بين مقتضيات الدرس اللغوي وبيان الإعجاز القرآني

– سر الفصاحة لـ"ابن سنان الخفاجي" أنموذجا–

Cognitive Complementarity of Phonetics between the Linguistic Theory and the Constraints of Qur'anic Eloquence. Case Study: Ibn Sireen Al-Khafajy's *The Secret of Eloquence*

***د.هدى عماري**

جامعة أمحمد بوقرةن بومرداس،(الجزائر) ho.amari@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2020/08/22 تاريخ القبول: 2020/12/09 تاريخ النشر: 2020/12/24

ملخص: اشتغلت هذه الورقة البحثية في حقل الدراسات الإعجازيّة وعلاقتها بالعلوم اللغوية وتحديدا علم الأصوات في إطار تكامل المعارف وتفاعلها عناية للغة العربيّة وتطوير مباحثها، وكانت المدونة المختارة تناسب طبيعة الموضوع وأهدافه " سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، لما لها من أهمية في إرساء معالم الدرس الصوتي العربي ومساهمته في بيان الإعجاز القرآني انطلاقا من المستويات اللّغويّة. كما سعينا إلى الوقوف على مجموعة من القضايا اللّغوية التي عرضها ابن سنان ونراها تدور في فلك المكون الصوتي في تحديد أوجه الإعجاز القرآني في تأكيد فكرة أن الدرس الإعجازي عابر للتخصصات قائم على تفاعل أفكار وتقارب مفاهيم وتتكامل فيها حقول معرفيّة مختلفة.

كلمات مفتاحية: التكامل المعرفي، البلاغة ، الإعجاز، سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي .

Abstract: The present research paper is within the field of the studies of miracles and their relation to linguistics, phonology in particular, within the framework of the integration of knowledge and interaction in order to examine the works of Arabic language and the development of its subjects. The selected code was appropriate to the nature and objectives of the topic; *The Secret of Eloquence* by Ibn Sinan al-Khafaji due to its importance in the establishment of the landmarks of Arab audio lessons and its contribution to the statement of the Qur'anic miracles linguistically. This research also seeks to examine a range of linguistic issues presented by Ibn Sinan regarded as the orbit of the role of the phonetic component in determining the aspects of the Qur'anic miracles in confirming the idea that the transdisciplinary miraculous lessons based on the interaction of ideas and convergence of concepts and the integration of different fields of knowledge.

Keywords: Cognitive integration rhetoric, miracles, the Secret of Eloquence, Ibn Sinan al-Khafaji

***المؤلف المرسل**: هدى عماري ، **الإيميل**: ho.amari@univ-boumerdes.dz

1. مقدمة:

ممّا لاشك فيه فكرة التكامل بين العلوم في العقدين الأخيرين أضحت من أكثر المواضيع إلحاحا في الأوساط العلمية والأكاديمية، نظرا لتشظي المعارف بين مجالات مختلفة تحت مسمى التخصص ومن ثم التخصص المعمق، فدعت الضرورة إلى مد جسور التواصل بين العلوم، ولعلّ التداخل والتكامل بين علوم العربيّة أكبر مثال على ذلك، فالنظريات اللّغويّة لا تنفصل وشائج صلتها بالأدب ونقده وطرائق تحليل خطاباته.

يقدم هذا البحث عرضا لبعض تصورات تعالق علمي الدرس اللّغوي والإعجاز القرآني، وذلك بالوقوف على منجزات النظريّة اللغوية في ميدان دراسات الإعجاز القرآني، فمعلوم أنّ الدرس اللّغوي نشأ في رحاب تفسير القرآن الكريم وتطور في أحضان الإعجاز. ونطمح في مستوى ثان إلى تأصيل فكرة تكامل المعارف بين مباحث البلاغة العربية ومطالب علم الأصوات

عبر معالجة العلاقات الممكنة، فقضايا الصوتيات لا يمكن مدارستها بمعزل عن العلوم المجاورة (النحو، الصرف، البلاغة) وليست حكرا على الباحثين في علوم اللسان وحال نفسه بالنسبة للبلاغة إذ ليست مقصورة على البلاغيين، وإنّما التداخل وارد للكشف عن أدبية النّصوص، ولعلّ موسوعية الإعجازيين اتساع معارفهم وشمولية مداركهم يؤكد التكامل المعرفي بين علوم اللّغة أثناء البحث عن مواطن الإعجاز. مستأنسين في ذلك بما قدّمه ابن سنان الخفاجي من رؤى ومفاهيم إجرائية في كتابه سر الفصاحة الّذي يعد بحق حلقة رابطة بين جهود النقاد قبل القرن الخامس الهجري وبعده، جمع فيه بين منهجه البلاغي مناهج النقاد واللغويين والمناطقة عند مدارسته للفصاحة والظواهر الصوتية. وعليه تم تحديد الإشكالية الرئيسة للدراسة كالآتي: ما هي تجليات التكامل بين الدرس الصوتي والبحث في الإعجاز القرآني؟

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن نعتمد منهجا استقرائيا لجهود ابن سنان الخفاجي مع التركيز على آليات التحليل والمقارنة بين الدرس الصوتي والدرس البلاغي الباحث عن أوجه الإعجاز القرآني.

2.بسط منهجي

تتوزع مصطلحات الدالة على مجال العلاقة بين المعارف والمناهج النقديّة كلّ منها يحمل دلالة المشاركة في حقول معرفية كثيرة أهمها مجال التعليم والاقتصاد والتربيَّة وعلم النَّفس و الدراسات الأدبيّة واللُّغوية،وهي تدعو إلى تضافر تخصصين أو أكثر للإجابة عن الإشكالات المستعصية ومعالجة القضايا الشائكة واقتراح الحلول، ويمكننا أن نشير إلى وجود مجموعة من مصطلحات تدخل في حقل الدراسات البينية (التكامل والتجاور والتفاعل و التعددية المعرفيّة والعبر معرفيّة والتعالقيّة المعرفيّة) وسنركز هنا على مصطلح التكامل لأنّه محور متصل بخصوصية التحليل في هذه الدراسة.

1.2.في مفهوم التكامل المعرفي

يحمل التكامل المعرفي دلالة التداخل بين العلوم والتفاعل بينها مما أثار إشكاليّة حول شرعية هذا المصطلح من حيث التداول نظرا لتقاطعه مع مصطلحات أخرى (العبر معرفيّة، تشابك التخصصات، التعالقية المعرفيّة، التعدديّة المعرفيّة) " فالجمع بين التخصصات يمكن أن نعني به التبادل والتعاون بينها، بحيث يصبح يشير التداخل بين التخصصات إلى ما هو عضوي "[1]وإذا ما استقرأنا بعض المعاجم اللّغويّة عن المعنى اللّغويّ لكلمة (discipline)فإنّها تعني وجود اشتراك بين " حقلين أساسين لا ثالث لهما، أحدهما دال على جميع المعارف والتخصصات و المواد التعليمية والثاني له علاقة بالسلوك الجماعي أو الفردي وما يرتبط بذلك من الانضباط لقواعد السلوك "[2] تذهب بعض الدراسات إلى توظيف التداخل بصيغة التكامل المعرفي واعتبارهما يحملان الدلالة ذاتها " فالتداخل تداخلان اثنان: أحدهما داخلي يحصل بين العلوم التراثيّة الأصيلة بعضها البعض والثاني خارجي يحصل بين هذه العلوم وغيرها من العلوم المنقولة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ أنسب العلوم الأربعة التداخل المعرفي، هم من جهة علم الأصول، باعتباره نسيجا متكاملا بين معارف إسلاميّة متنوعة، ومن جهة ثانية،علم الأصول باعتباره نسيجا متكاملا بين معارف إسلاميّة متنوعة، ومن جهة ثانية الفلسفة الإلهية باعتبارها علما منقولات اندمجت فيه بنيات معرفية تراثية أصيلة " [3]

وعليه، فإنّ التكامل المعرفي يحصل نتيجة تضافر آليات بين التخصصات المتجاورة، و أنّ المعرفة تمثل مستوى التفكير الإنساني الذي يتسم بالتراكم والتغير والتطور تبعا لدرجة نشاط العقل ووعيه بضرورة إيجاد وشائج الصلّة بين التخصصات والعمل على تعزيز سبل التكامل بينها وبالرجوع إلى تراثنا الأدبي والنقدي نجد العديد من المؤلفات التي قامت على منهجية

تكاملية بناءة كما الحال في كتاب إحصاء العلوم للفارابي حين أشار إلى تفاعل علم اللسان و المنطق و الطبيعيات وعلم الكلام والفقه وأبرز تأثيرها على السلوك الإنساني، فالمعرفة المنطقيّة حسبه " تفيد الإنسان وتجعله قادرا على الإقناع وإدراك آراء الآخرين والتسلح بقوة المنطق تضمن التفوق وكسب المصالح والمنافع ". [4]

فالمتمعن في حقل المعارف التراثية يجد أن أصل التداخل فيها قائم بمقتضى المعارف التي تضمنها التراث، فيكون الاشتغال بهذه الآليات مؤديا بالضرورة إلى العناية بالتراث الإسلاميّ بجمع دوائره المختلفة و من غير استبعاد ولا حذفا ولا استثناءا "[5] إذا باستعمال المناهج مفصولة عن منابتها معزولة عن تفاعلها مع بعضها البعض يفضي بالبحث إلى مزالق منهجية وهنات علمية، لهذا فإنّ التراث العربيّ الإسلاميّ قام على مبدأ الموسوعيّة ممّا لا يدع مجالا للشّك من أن أطروحة التكامل المعرفي مترسخة و متجذرة في تاريخ العلوم العربيّة الإسلاميّة حيث كان التوجه العام المنتهج في التعليم والتكوين و التآليف جميعا إلى الأخذ بالموسوعيّة، فقد كان من مبادئ التعليم أن يبتدئ المتعلم بالاطلاع على علوم عصره في مقاصدها ومناهجها، وفي بعض مسائلها ثمّ ينتقل بعد ذلك التعمق وتحصيل المَلَكَة فيها ." [6]

لا يتأتى التكامل المعرفي إلا إذا قامت الدراسة على فكرة اتساع الأفق في الطرح والمساءلة والتزام الموضوعيّة في المعالجة والتأصيل للظواهر بالحجة والمنطق وفتح إشكالات البحث على مدارك العلوم بعيدا عن ثقافة عزل المعارف عن أصولها وفروعها، هذا يرتبط بشكل مباشر بالأدوات التي يتبناها الباحث، والحق أنّ التكامل يجمع القواسم المشتركة والمسالك المتقاربة بين المعارف، وهو يشمل المبادئ والطرق المنجزة لتحقيق التوحيد والشمولية في المعرفة وبناء وشائج الصلّة في دائرة العلوم الموصولة كما هو الحال مع الحديث والتّفسير والفقه والتصوّف والكلام، التي ينطبق عليها مفهوم العلوم المتعارفة[7] الّتي كان على العلماء في الثقافة العربيّة التراثية الإلمام بها جميعا حتى يأتي البحث في موضوع ما مكتملا من جوانب عدة بدرجة عالية من التمحيص والتدقيق، وإذا ما التفتنا إلى العلوم الإنسانيّة المتجاورة يتضح لنا التكامل بين علمي الاجتماع و التاريخ فما قدمه ابن خلدون من آراء حول نشأة العمران وتطوره تقاطعت فيها علوم ومعارف وأنشطة إنسانيّة عديدة حتّى تمكن من تأسيس نظريته الشهيرة في فن العمران.

3.التكامل بين علم الأصوات وعلمي النحو والصرف

تتقاطع العلوم اللّغويَّة فيما بينها مشكلة لحمة معرفيّة ولبنة أساسية كونها ترتبط بمصدر واحد هو اللُّغة،ولا يخفى على الدارس لعلم النحو العربي ارتباطه الوثيق بالدرس الصوتي، ذلك أن المعرفة الصوتية بصفات ومخارج الأصوات وإدراك الميزات الصوتية للغة ضرورة قبل بدأ الدراسة النحوية، فقد عني علماء اللغة القدماء بعلم الأصوات لما له من أهميّة في فهم النّص القرآني، وتجنب الوقوع في اللحن، نذكر من ذلك جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، والفرّاء، وابن جني، فقد كان لهؤلاء قصب السبق في طرق قضايا تتعلق بعلم الأصوات. والإجابة على كثير من الأسئلة " التي تتصل بنحو اللغة العربية الفصحى وصرفها، أو تلك التي تتعلق باللهجات العربية القديمة أو القراءات القرآنية. هذا إلى أنَّ الدراسات الدلالية قد لا تكون مثمرة، ما لم تركز على دراسة الصور الصوتية والتنغيمية "[8] .

استنادا لما سبق ذكره، نرى أنّ التداخل بين علم النّحو وعلم الصرف والصوتيات ساهم في تطوير الدرس النحوي الّذي استمد بعض قواعده من علم الأصوات، وبالتالي ساعد في خلق شبكة من التفاعلات بين العلوم حتّى أنّه لا يكتمل أدراك علم

نحو مثلا إلا بعد الإلمام بعلم الأصوات؛ لأنّ تتعالق مع بعضها البعض في انسجام ولا أدّل على ذلك في تراثنا اللغوي من تأكيد الخليل بن أحمد الفراهيدي الرابطة الوثيقة بين علوم النّحو والصرف و الأصوات " فأعاد النظر في الترتيب القديم للأصوات الّذي لم يكن مبنيا لا على أساس منطقي ولا على أساس لغوي، فرتبها بحسب المخارج في الفم، وكان ذلك فتحا جديدا لأنّه كان منطلقا لمعرفة خصائص الحروف وصفاتها "[9].

نستشف من هذا أنّ الحديث عن علم النحو متصل بالدراسات الصوتيّة في علاقة أخذ وعطاء؛ فتفسير بعض المسائل النحوية يستلزم الرجوع إلى مباحث الصوتيات خاصة ما تعلق بالمقاطع الصوتيّة خاصة ما تعلق بظواهر :التقاء الساكنين، الشيوع، المجاورة، السهولة، كما فسرت بعض المسائل في ضوء الثنائية الصوت والقاعدة النحويّة مثل ما هو حال " معظم حالات بناء الفعل الماضي، وبناء بعض الأسماء والحروف على الفتحة أو الكسرة بدلاً من السكون، وتخصيص الجزم والسكون بالأفعال والجر بالأسماء، ومسائل أخر تتصل بموضوعي العدد والنداء." [10]

كما يعد علم الصرف من العلوم شديدة الصلّة بعلم الأصوات، فمن مبادئه الأساسية الميزان الصرفي الّذي يرتكز على الحركة الصوتية للحرف، وهذا يؤكد التلازم المعرفي بين علم الصرف وعلم الأصوات، وبخاصة أنّ الدراسة الصرفيّة ترتكز في المقام الأوّل على الصوت؛ مثل ما هو واضح في ظاهرتي الإعلال و الإبدال حيث يكون تغيير على مستوى الصوائت؛ ففي الإعلال " يحدث التغيير في أحد حروف العلّة الثلاثة (الألف والواو والياء)مثل تغيير قوَل إلى قال بقلب الواو ألفا وتغيير بايع إلى بائع بقلب الياء همزة "[11] ويبدو أنّ هذا التلاقح بين علمي الصّرف والأصوات جعل الكثير من الدارسين والباحثين يدرسون علم الصرف على ضوء علم الأصوات، بحيث لا يكون أساس دراسة الكلمة انطلاقا من رسمها بل من النطق. فيعاد في أصل الصوامت والصوائت ومقاطع أحرف العلّة وما إلى ذلك أسس لدراسة الصرف " [12] وتمثل همزة الوصل نقطة تلاقي بين الدرس الصرفيّ والدرس الصوتي " فمن الناحية الصوتية ليس أكثر من تحريك خفيف أو صوت لجأ إليه المتكلم العربي في بداية الكلمة حيث تمنع طبيعة التركيب المقطعي لهذه اللّغة البدء بصوت صامت غير ملتو بحركة. ولكن هذه الظاهرة الصوتية مرتبطة بصيغ صرفية لا تتعداها ولا تتجاوز حدودها "[13]

وصفوة القول؛ إنّ علوم العربيّة وآدابها الثمانيّة: النّحو، واللّغة، والتصريف، والعروض، والقوافي وصنعة الشّعر، وأخبار العرب وأنسابهم؛تدور في فلك البحث مباحث اللغة تراكيبها وقواعدها، ويتضح أن علمي النحو والصرف يتداخلان بشكل مباشر مع علم الصوتيات في علاقة تأثير وتأثر، أخذ وعطاء.

4.التكامل بين علم الأصوات والتجويد

اهتم اللّغويون القدماء بدراسة الأصوات، وأغلب الظن أن من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك هو اتصال علم الأصوات الوثيق بعلم القرآن الكريم، فضلا عن العلاقة الوثيقة بين علم الأصوات من جهة وعلمي النحو والصرف من جهة أخرى، ذلك أنّ ترتيل القرآن الكريم يجعل القارئ في حاجة إلى فهم صفات الحروف ومعرفة مخارجها، وعلى الرغم من تأخر ظهور الدراسات الصوتيّة نسبيا عن علم التجويد إلا أنّ العلماء اللغة والقراءات استعانوا بمدونات النّحويين ومؤلفات اللّغويين.وذلك لمعرفة النظام الصوتي للغة العربيّة صفات الحروف كالإدغام والإظهار والمدّ والقصر والتفخيم والترقيق، " ودراسة

أصوات اللغة وتحديد صور نطقها الصحيحة. حيث رصدوا الانحرافات المتوقعة في نطقها، فتحققت بذلك فرصة لدراسة أصوات العربية دراسة شاملة، والتي تدخل في صميم مباحث التجويد "[14] .

والحق أنَّ الاستفادة من قواعد وخواص الدرس الصوتيّ والاستعانة به في علم التجويد تزايدت في العصر الحديث حيث ظهرت نظريات متعلقة بالصوت، وأضرب علم الأصوات (السمعي، النطقي، التشريحي، العصبي، الفيزيائي) وهذا ما أفاد علم التجويد خاصة بعد اختراع أجهزة قياس الصوت وتحديد مخارج الحروف وصفاتها." تشخيص الفروق الدقيقة بينها، وتحديد السمات المميزة لكل حرف بتحديد تردده ووزنه وزمن نطقه وطاقته، واختلاف صفاته وأحواله مفرداً ومركبا " [15]

5.علماء الإعجاز وتطور الدراسة الصوتية

اهتم علماء الشريعة واللّغة بقضية الإعجاز القرآني، فجاءت تفاسيرهم ومؤلفاتهم اللغوية تعالج قضايا بلاغيّة وبيانيّة تحدد مواطن الإعجاز، وهذا ما حقق تداخلا معرفيا وتفاعلا منهجيا بين علوم اللغة العربيّة، فالخطاب القرآنيّ مثل موضوعاً للعديد من العلوم الّتي عرفت نشأتها وتطورها عبر تفاعل الفكر الإسلامي المسلم مع أنوار السور القرآنيّة الإعجازيّة في مضامينها وأحكامها ولغتها وبيانها، فازدهرت علوم اللغة والشريعة في أحضان القرآن، وإن كان من البديهي أنّ تلك العلوم لم تنضج دفعة واحدة، بل عرفت منعطفات ومراحل ولم تتبلور مستقلة عن بعضها البعض، وإنّما كان التكامل والتعاضد منهجا متبعا لدى العلماء في مختلف الحقول المعرفية في علوم القرآن واللُّغة وأصول الدين والمنطق والكلام والدراسات الإعجازيَّة.

وقد تعددت اتجاهات دراسة الإعجاز و تضاربت آراء العلماء و اختلفت وجهات نظرهم فكان لكل اتجاه دلائل و براهين تثبت حججه و تقوي مواقفه، وفي المقابل تضعف من صدى باقي الاتجاهات، وهذا يدل دلالة واضحة أنّ المعجزة القرآنية كانت ولا تزال و ستبقى ملفا مفتوحا طول الدهر يأخذ كل دارس وجهة نظره بحسب ما تيسر له من الاجتهاد في مناقشة قضية الإعجاز.

نظر تيار أهل الصرفة للإعجاز من خارج النّص القرآني، وهو يعد أوّل الاتجاهات الإعجازيّة ظهورا يذهب إلى أن الإعجاز يكمن في الصرفة و ينسب هذا القول إلى المعتزلة عامة و إلى أبي إسحاق النظّام (ت221هـ) الذي يذهب إلى أنّ " الإعجاز في القرآن حاصل بالقدرة الإلهية فالله قد أنزل وحيّه وتحدى به المكذبين، والخلق كافة أن يأتوا بمثله فما استجابوا بل عجزوا، وذلك بفعل إرادته التي صرفتهم عن المعارضة البيانية القرآن، فالإعجاز من هذا المنظور أثر خارجي قدري"[16]

إلى جانب اتجاه الصرفة اهتمت دراسات أخرى ببيان مواطن الإعجاز القرآني من داخل النص، فذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن معجز ببلاغته، و فريق آخر رأى أنه معجز بنظمه. فابن قتيبة يعالج الإعجاز من جانب بياني بلاغي حيث تدل الصور البيانية عن قمة البلاغة في القرآن الكريم لأنّه " جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه." [17]وهذا يتناسب مع جوهر البلاغة في فكر أبي هلال العسكري، فالفرق بين النّص القرآني و النّص البشري في نظره يكمن في جانبه البلاغي " الّذي خصه الله به من حسن التأليف و براعة التركيب و ما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف وضمنه من الحلاوة و عذوبتها و سلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها و تحيرت عقولهم فيه."[18]

ويأتي "ابن سنان الخفاجي" (ت466هـ) برأي متميز حول حقيقة الفصاحة، توح عبره الجانب البلاغي للإعجاز من خلال العلوم الأدبية ؛ إذ بها يعرف نظم الكلام على اختلاف تأليفه و نقده و في العلوم الشرعية إذ أن المعجز الدال على نبؤة

محمد صلى الله عليه وسلم فلا مندوحة لذا في الوجهين مع بيان ماهية الفصاحة القرآن خرجت عن مقدور البشر و في الثاني بأنها كانت في مقدورهم و من جنس فصاحتهم" [19]قد استطاع ابن سنان توظيف العلوم الأدبيّة و الشرعية، و مبدأ الصرفة و خرق العادة كأدوات الإعجاز، كما تمكن من الاستفادة من مفهومه للبلاغة و الفصاحة لإدراك ظاهرة الإعجاز في القرآن.

وإذا ما خصصنا الحديث عن الدرس الصوتيّ في كتب الإعجازيين ، فإننا نلاحظ عناية العلماء بالصوت في إبراز إعجاز اللُّغة القرآنيَّة من خلال البحث في أضرب فصاحتها ووجوه تأليفها انطلاقا من البنية الصوتيَّة بتفسير صفاتها و تحديد مخارجها وصولا إلى دلالتها.وفي عجلة سنقف عند إسهامات بعض العلماء في إبراز أهميّة الصوت في تحديد الإعجاز القرآني.

فقد ركز "أبو الحسن الرّماني" (ت 384) صاحب النكت في إعجاز القرآن على تلاؤم الفواصل وتجانسها ويرى أن " تلاؤم الحروف في القرآن يختلف عن غيره من الكلام كالفرق بين التنافر والمتلائم من الطبقة الوسطى من الكلام، ويذهب إلى تأكيد أنّ القرآن الكريم يتحدى النّاس جميعا في تلاؤمه، فقد قامت الحجة القرآنيّة على العربي والعجمي بعجز الجميع عن المعارضة إذ بذلك تبين المعجزة "[20]

وبحسب "الرّماني" فإنَّ حسن البيان في الكلام يقوم على مراتب " فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتّى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النّفس تقبُّل البرد حتّى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة " [21]

وفي الاتجاه ذاته يذهب "الخطابي" (ت388) إلى أنّ الإعجاز قائم في وجوه البلاغة، التي يقسمها إلى طبقات، أرفعها البليغ الرصين وأوسطها الفصيح القريب ، وأقصدها الطلق الجائز المرسل، في نظره أن بلاغات القرآن حازت من كل طبقة بحصّة، فنجد البليغ الرصين والفصيح القريب ويحدد الخطابي العوامل المساعدة على تشكيل الظاهرة إعجازيّة لغويا وبلاغيا في اللفظ والمعنى والنظم، وفيما يقول : " إنَّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن هذه الأمور منه في غاية الشّرف والفضيلة فتفهم الآن، واعلم أنَّ القرآن إنّما صار معجزا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني " [22] على الرغم من أنَّ الخطابي لم يفرد مبحثا خاصا للصوتيات وعلاقتها بالإعجاز البلاغيّ، إلا أنّه قدم بعض الإشارات عن الدرس الصوتي في معرض حديثه عن الإيحاء الصوتي للفظ من خلال التمثيل بلفظ الصدع، يقول " الصدع في ذهن السامع من صوت الكسر، قال تعالى (فاصدع بما تؤمر) إن كان هو الحقيقة والصدع مستعار وإنّما يكون ذلك في الزجاج ونحوه ومعناه المبالغة فيما أمر به حتَّى يؤثر في النّفوس والقلوب تأثير الصدع في الزّجاج ونحوه ". [23]

كما تعد آراء الباقلاني النقديّة من أهم المقولات المؤسسة لتحليل مستويات الكلام والمقارنة بين القرآن الكريم وكلام البشر، وقد أفرد جانبا من مؤلفه إعجاز القرآن لدراسة الحروف المقطعة في بعض آيات القرآن الكريم وقام بتحليل الحروف وإبراز صفاتها ومخارجها – لا يسع المجال هنا للخوض في تفاصيلها–ونافلة القول إنّ الملاحظات الصوتيّة التي قدّمها العلماء وهم يبحثون عن أوجه الإعجاز يمكن اعتبارها اللبنة الأساسيّة لعلم الصوتيات. ومن جانب آخر؛ فإنَّ دراسة المكون الصوتيّ في القرآن الكريم يحمل أبعاداً إعجازيّة وأخرى دلاليّة.

ويبدو أنّ ارتباط الدرس اللُّغوي الصوتي بالدراسات الإعجازيّة يتضح بشكل جليّ في مدونة السرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي والتي اختار فيها قضايا بلاغيّة كثيرة ذات الصّلة بالإعجاز البياني في القرآن وهذا ما يتبين من خلال تحديد الغرض من تأليف كتابه " معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسيرها ".[24]

وفي معرض حديثه عن طبيعة الصوت وطرائق إدراك تشكله يرى أنّ " الأصوات تدرك بحاسة السمع وقد سئل على هذا المذهب العلّة في مشاهدة القصّار من بعد يضرب الثوب على الحجر ثم يسمع بعد مهلة، فيسبق النظر السمع وأجيب عن ذلك بأنّ الصّوت يتولد في الهواء والبعد المخصوص مانع من إدراكه ".[25] فطبيعة الصوت تتأثر بحركة الهواء الذي ينقله إلى السامع ويؤثر فيه، يحسم أنّه مدرك بحاسة السمع.

6.المكون الصوتي وبيان الإعجاز القرآني عند "ابن سنان الخفاجي"

أدرك الإعجازيون أهمية الصوت في إجلاء مواطن الإعجاز القرآني، فهو يعد أصغر وحدة مشكلة للفظ وهو الباعث لإحداث الإيقاع الذي يقرع السمع ويؤثر في النّفس،وليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، "وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو عنة أو لينا أو شدّة وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها "[26].

وعلى الرغم من أنّ كتاب سر الفصاحة يصنف ضمن قائمة كتب البلاغة لأنّه خاض في مسائل تتعلق بالفصاحة وبلاغة الكلام وعلم البيان ، إلا أنّه تناول البنية الصوتية عند حديثه عن الفصاحة وطرائق إدراكها لاعتقاده أنها السبيل للكشف عن سر الإعجاز،فقد استهل بحثه البلاغي بالوقوف على أحكام الصوت ثم انتقل إلى الحديث عن مخارج الحروف وصفاتها وواصل التحليل والشرح في بيان الفصاحة إلى الكلمة، فجعل لفصاحتها أسبابا ومظاهرَ ليؤكد أنّ الكلام إذا ما انتظمت حروفه فإنّه يقع في المستعمل وضح أنّ ذلك حال اللُّغة العربيّة، وما فيها من الحروف،وكيف يقع المهمل فيها والمستعمل ، ثم تكلم بعد هذا في الفصاحة، ولم يخل ذلك من شعر فصيح وكلام غريب بليغ يُتدرب بتأمله على فهم مراده ".[27] هذا ما جعل الكثير من الدراسات تكشف عن القيمة العلمية والمكانة النقدية لكتاب سر الفصاحة، فوصف بأنّه " من أنفس الآثار البيانية؛ لأنّه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي." [28]

يوضح "الخفاجي" في مستهل الكتاب العلاقة البنية الصوتيّة و الفصاحة التي يراها تمثل وجه من وجوه الإعجاز، لذا وقف وقفة طويلة عند التلاؤم الصوتيّ، فعالج رأي الرّماني في التلاؤم وتقسيماته للتأليف ليعلن فساد القسمة؛ لأنّ التأليف في نظره لا يأتي إلا على ضربين : متنافر ومتلائم، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد ما يكون من المتنافر ما بعضه أشد في التنافر "[29]وهذا يعني أنّ التقسيم الّذي اعتمده الخفاجي خاصة إذا ما تعلق الأمر بقدرة الصوت على جعل الكلام يجمع صفتي العذوبة والفخامة، بيد أنّه لم يتوسع في تحليله لخصائص الصوت وقيمتها الفنيّة وبحثه في تآلف الحروف وانسجام مخارجها.

يتضح لنا أنّ التأليف في النّص القرآني حسب ابن سنان مساو بتلاؤمه للتأليف للنّصوص الفصيحة إذا ما تمكن النص فيها من استيعاب الآليات والقواعد المعيارية التي يقاس بها تلاؤم الكلام، كأنَّ " يتجنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام "[30].

ومن الطبيعي أنَّ اهتمام "الخفاجي" بالمكون الصوتي في الكلام الأدبي يبرهن على قدرته النقديّة في الكشف عن الميزات الجماليّة التي يضفيها الصوت على النّص، هذا ما دفعه إلى التماس الأثر النفسيّ و الوقع الذي يحدثه في النّص القرآني وبعض النّصوص الشّعريّة، فوجد أنّ آراء الإعجازيين وبخاصة الرّماني في تأليف الألفاظ من حروف متباعدة لا يفي بغرض تحديد مواطن الإعجاز ، بل لابدّ من خصوصية معينة للتأليف تعنى بانسجام الحروف وتآلف أصواتها.

وبهذا يخلص الخفاجي إلى نتيجة مهمة مفادها أنّ التلاؤم الصوتي لا يعود إلى الخارج فحسب، وإنّما بسبب خصوصية تأليف الأصوات، من هنا فإنَّ البنية الإيقاعيَّة في مظهرها الصوتي تحدد جانبا من إعجازيّة الفواصل القرآنيّة و صفات الحروف والحروف المقطعة في بعض الآيات وتبقى الحاجة إلى تلاحم المكون الصوتي مع الألفاظ والتراكيب لتكتمل صورة الإعجاز البياني.

ومن هنا تتضح لنا الرؤية التّكامليّة الّتي انتهجها ابن سنان الخفاجي في تحليله للأصوات ركز على السجع اللون البديعي الذي أثبت من خلاله تميز الآيات الكريمة بسمة الفواصل القرآنية التي تمثل وجها من وجوه الإعجاز وسر من أسرار بلاغته، تقع في الأسماع فتؤثر في النفوس. وجاءت آراؤه في التلاؤم الصوتي جامعة بين مقتضيات الدرس اللّغوي ضرورات البحث في الإعجاز، فكان التكامل بين الغرض الأدبيّ التعريف بخصائص الحرف واللفظ والتركيب وألوان البيان وأضرب البديع، والوصول بعلم البلاغة إلى إدراك وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم.

7.خاتمة

نخلص مما سبق إلى القول إنّ علم الأصوات شكل حلقة وصل بين الدراسات الإعجازيّة والعلوم اللغويّة من إيجابيات هذا التقاطع استفادة علم النحو و الصرف، والتجويد من مباحث الصوتيات، و في مؤلف سرّ الفصاحة يطالعنا بتوليفة معرفية حققت تكاملا بحثا في ماهية الفصاحة وأسس البلاغة وصولا إلى الكشف عن مكامن الإعجاز القرآني، وهذا يؤكد أنَّ ابن سنان الخفاجي يمثل أنموذجا للموسوعيّة الّتي وصفت بها الثقافة العربيّة التراثية ورجالاتها،حينما فتحت آفاق البحث بين العلوم برد المختلف منها على المؤتلف والمتفرق إلى المجتمع تعضيدا لمبدأ التكامل.حيث تتضافر الجهود لبناء رؤية تفاعلية شمولية تتناسل فيها المعارف وتنتقل مفاهيمها من حقل إلى حقل آخر، وتتجاور مضامينها تارة وتتجاوز بعضها البعض وتستعير من بعضها الآليات في حركة تأثر وتأثير ، ممّا لا يدعو مجالا الشّك أنّ التفكير في إحداث القطيعة لا يتناسب وطبيعة الفكر الإنسانيّ.

8.قائمة المراجع

1- بدوي طبانة ،البيان العربي،دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند الكبرى مناهجها و مصادرها الكبرى، دار الرفاعي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط7، 1988.

2-الحمد غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، وزارة الأوقاف، بغداد، العراق، ط1، 1986.

4

5- ديزير سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصحافة العربيّة، بيروت، .1996

6- الرماني، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تح محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1976

7- أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تح محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1976.
8- سليمان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1998.
9-ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2، دت
10- طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 1993.
11- طه عبد الرحمن، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربيّة للطبع والإبداع ، بيروت، لبنان، ط1، 2015.
12- عبد العليم إبراهيم، تيسير الإعلال والإبدال، مكتبة غريب ، القاهرة، دط، دت .
13- ابن قتيبة : تأويل المشكل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.
14-محمد صالح الضالع التجويد القرآني، دراسة صوتية فيزيائية، دار غريب، القاهرة، دط، 2002.
15- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2،1997.
16- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط9، 1973.
17- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد، بيروت، لبنان، 1986.
18-أبو النصر الفارابي، إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1991 .
19- أبو الوليد ابن رشد، تح عبد الرحمان بدوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت، ط1، 1984.
20-أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل البابي الحلبي،مكتبة الفكر العربي القاهرة، ط1، دت.
21-Edgar Moran ,Sur interdisciplinarité, Le journal des professeurs de l'université de Montréal, volume7numéro3,2003,p10.
22- Larousse, voir le terme, discipline , www.larousse.fr/dictionnaires/francais/discipline/25818

مواقع الانترنيت:

23-خالد عباس حسين السياب ، أهمية علم الأصوات في تعليل مسائل النحو، مجلة أهل البيت، بحث منشور في موقع جامعة أهل البيت http://abu.edu.iq/research/articles

8.قائمة الإحالات

1-Edgar Moran ,Sur interdisciplinarité, Le journal des professeurs de l'université de Montréal, volume7numéro3,2003,p10.

2-Larousse, voir le terme, discipline, www.larousse.fr/dictionnaires/francais/discipline/25818

3- طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 1993، ص59.
4- ينظر أبو النصر الفارابي، إحصاء العلوم، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1991، 15-16.
5- طه عبد الرحمن، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربيّة للطبع والإبداع ، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص64
6.- المرجع نفسه، ص 90.
7- مصطلح أطلقه للدلالة على الروابط الجامعة بين العلوم، ينظر أبو الوليد ابن رشد، تح عبد الرحمان بدوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ط1، 1984، ص66.
8- ينظر محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1997، ص133 – 134.
9- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد، بيروت، لبنان، 1986، ص5.
10- خالد عباس حسين السياب، أهمية علم الأصوات في تعليل مسائل النحو، مجلة أهل البيت، بحث منشور في موقع جامعة أهل البيت http://abu.edu.iq/research/articles

11- عبد العليم إبراهيم، تيسير الإعلال والإبدال، مكتبة غريب ، القاهرة، ص5.
12- ديزير سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصحافة العربيّة، بيروت، 1996، ص19.
13- خالد عباس، حسين السياب، علم الأصوات وأهميته في علم الصرف 2011/4/9 http://dawnster.blogspot.com/2011/04/blog-post_08.html
14- الحمد غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، وزارة الأوقاف، بغداد، العراق، ط1، 1986، ص 14.
15- محمد صالح الضالع، التجويد القرآني، دراسة صوتية فيزيائية، دار غريب، القاهرة، دط، 2002م، ص25-31.
16 - سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية ، لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1998،ص:17.
17- ابن قتيبة، تأويل القرآن ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ص: 4 .
18- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل البابي الحلبي،مكتبة الفكر العربي القاهرة، ط1، دت.
19- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2،ص:42
20 - الرماني، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تح محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1976،ص97.
21- المصدر نفسه، ص97.
22- أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تح محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة ط3، 1976، ص24.
23- المصدر نفسه ، ص51.
24- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص7.
25- المصدر نفسه، ص12.
26- الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، القاهرة ط9، 1973، ص215.
27- -ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص40-41.
28- بدوي طبانة ، البيان العربي،دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند الكبر مصادرها دار الرفاعي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط7، 1988، ص:94.
29 - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص79.
30 - المصدر نفسه ، ص97.